من نماذج الإصلاح :

الاصلاح الزراعى الصناعى فى روسيا

للأستاذ يحيى هويدى

نحمد الله أن أصبح لنا من النضج فى التفكير ، ومن الشعور بالذاتية القومية ما يسمح لنا بمعالجة الموضوعات التى تتصل بالاتحاد السوفيتى على صفحات مجلاتنا وجرائدنا . وكانت من قبل من الموضوعات الشائكة التى يتحرج الكتاب من الكتابة فيها أو الإشارة إليها . ورأيى فى هذا أن من حق المصريين ، وقد شعروا أنهم يتقدمون نحو الإصلاح بخطوات واسعة ، أن يطلعوا على ما تم فى الأمم الأخرى فى سبيل إصلاحها . وهم بعد ذلك فى حل من أن يقبلوا ما أطلعوا عليه من نظم الإصلاح فى الأمم الأخرى أو يرفضوه بحسب ما يرون فى ذلك من ملاءمة هذا النظام أو ذاك لحالتنا الاجتماعية أو عدم ملاءمته . ولكن ما يهمنا فى ذلك كله هو أن يطلعوا ويستنيروا ويكونوا نظرة عالمية واسعة عوضا عن النظرة القومية الضيقة .

وليس من شك فى أن النهضة التى شاهدتها روسيا من الناحيتين الزراعية والصناعية فى السنوات الأولى من هذا القرن ، والتى وقف بإزائها العالم أجمع مشدوها لا يكاد يصدق ما يراه ، جديرة بنظر كل من يريد أن يكون فكرة عامة عن الإصلاح فى الأمم الأخرى . لا سيما وأن الصعوبات التى وقفت فى سبيل النهضة الروسية المنشودة كانت كافية لتثبيط همم المصلحين ولهدم الإصلاح من أساسه .

فكلنا يعلم حال روسيا القيصرية قبل ثورة البلاشفة . فلم تكن روسيا إذ ذاك تختلف فى كثير أو قليل عن حالة فرنسا قبل الثورة . وكان نظام الطبقات ممثلا فى روسيا أعظم تمثيل . فكانت هناك طبقة الزراع او طبقة العمال الزراعيين الذين كانوا بمثابة البقرة الحلوب للملاك وأصحاب الأراضى . وكان هؤلاء الملاك يلزمون الزراع بدفع تعويضات باهظة وأجور عالية كثيرا ما كانت فوق متناولهم وترهقهم إرهاقا لا يسعون معه الا أن يهجروا قراهم ليعملوا فى المصانع فى المدينة . وعلى الرغم من ذلك فلم تكن حالة العمال الصناعيين خيرا من حالة إخوانهم الزراعيين . فكانت الأجور منخفضة إلى حد يدعو إلى الإشفاق ، وساعات العمل تتراوح بين ١٢½ ساعة فى المناجم والمصانع ، وبين ١٤ — ١٥ ساعة فى مصانع النسيج كما

ذكر ذلك لينين فى رسالته الصغيرة . " إلى فقراء القرية " . وأحب أن أشير هنا إلى أنه يجب ألا يفهم عند الحديث عن العمال الصناعيين أن الصناعة فى روسيا فى هذا العهد كانت متقدمة بحيث نستطيع أن نسميها صناعة على وجه الدقة . فقد ذكر لينين فى كتابه " تطور الرأسمالية فى الروسيا " أن ٥/٦ من مجموع الشعب كانوا يعملون فى الزراعة ، أما السدس الباقى فكانوا عمالا صناعيين يعملون فى المصانع أو فى السكك الحديدية ، وهذا دليل على أن الرأسمالية فى روسيا كانت زراعية فحسب ولم تكن صناعية شأنها شأن البلاد الرأسمالية الأخرى التى جمعت بين الصناعة والزراعة ، وفى مقابل هذه الطبقة ، طبقة العمال الزراعيين والصناعيين كانت هناك طبقات أخرى تمثل الأوستقراطية والرأسمالية الحقة . فهناك طبقة الملاك وأصحاب الأراضى فى القرية مضافا اليهم أصحاب الأعمال فى المدينة ، وكان يعاون الملاك فى جمع الضرائب وفى تنفيذ أوامر القياصرة جماعة يدعونهم "الشرفاء" كانوا يسومون العمال الزراعيين والصناعيين العذاب ألوانا . وكانت هناك طبقة أخرى تتوسط طبقة الملاك من ناحية وطبقة العمال الزراعيين والصناعيين من ناحية أخرى وأفراد هذه الطبقة ليسوا أرستقراطيين لأنهم كانوا عمالا وأثروا ثراء فاحشا ، ولنسمى هذه الطبقة " أثرياء الطبقة المتوسطة " أو جماعة الكولاكس The Kulaks .

ولم يكن نظام الطبقات هذا أو سوء توزيع الثروة فى روسيا هو العقبة الوحيدة التى وقفت فى سبيل النهضة المنشودة ، بل أن الزراعة والصناعة فى الروسيا كانتا فى العهد الذى سبق الاصلاح متأخرتين الى درجة يتعذر معهما كل اصلاح ، فكانت المصانع مزودة بآلات بالية عفى عليها الزمن ، ولم يكن ليتسنى لها أن تجارى التقدم الصناعى الجديد ، وكانت الصناعات القائمة فى الروسيا حينذاك صناعات خفيفة لا تصلح لتقويم أمة تقويما صناعيا صحيحا ، فكان الأمر بحاجة الى أن يستبدل بتلك الصناعات صناعات ثقيلة تفيد الاقتصاد القومى ، وتصلح لتقويم الجيش ولتزويده بما يحتاج اليه من العدد والآلات . ولم تكن الزراعة بأحسن حالا . فقد كانت زراعة متأخرة ، قليلة الانتاج ، لا تستند الى الآلات بل كانت بدائية تقوم على مجهود الفلاح اليدوى .

وليس هذا فحسب . بل لم تكد تبدأ الروسيا فى الاصلاح المنشود ، وفى تمهيد الطريق اليه حتى دهمتها حروب مدة خارجية وداخلية . فقد اشتركت الروسيا ضد اليابان فى الحرب الاستعمارية (الأمبريالية) The Imperialist وكان عليها أن تقاوم التدخل الأجنبى لأكثر من دولة كانت تجد فى الروسيا تحقيقا كبيرا لمطامعها فى ذلك الوقت . وقد وجدت هذه الدول التى طاب لها أن تتدخل فى مصالح الروسيا حينذاك مشجعا من الرأسماليين الروس أنفسهم ومن أصحاب الأراضى والملاك فيها . ذلك أن هؤلاء ، وقد وجدوا فى طبقة الزراع

والصناع ما يبشر باتجاه جديد أرادوا أن يقضوا على هـذا الاتجاه فى مبـدئه ، وكان هذا النزاع سببا فى قيام حروب أهلية فى الروسيا لحق البـلاد بسببها من الأضرار ما لا يقل بل وما يزيد عما لحقها من الأضرار فى حروبها الخارجية .

وليس أدل على ذلك مما وصلت اليه حالة الاقتصاد القومى فى الروسيا من انحطاط ظاهر ولا عجب فقد استمرت هذه الحروب الطاحنة قرابة سبع سنين : أربع سنين فى الحرب الاستعمارية وثلاث أخرى فى حرب ضد التدخل الأجنبى والحروب الأهلية ، فلم يبلغ الانتاج الزراعى سنة ١٩٢٠ فى الروسيا نصف ما كان عليه قبل هذه الحروب . علما بأن الإنتاج الزراعى قبل الحرب — فى ظل الحكومة القيصرية — قد وصف بأنه إنتاج قليل ضعيف ، ولم يصل الانتاج الصناعى فى هذه الفترة فى أكثر مناحيه الى ١/٧ الانتاج الصناعى قبل الحرب وأوقف العمل فى المناجم ، وعطلت طرق المواصلات . وكانت البلاد كلها تشكو نقصا ظاهرا فى المواد المعيشية الضرورية .

تلك صورة عامة للحـالة التى كانت عليها الروسيا فى الفترة التى سبقت الاصلاح . ومنها نرى أن الطريق الى الاصـلاح فى الروسـيا لم يكن ممهدا معبدا كما يظن البعض ، بل إن العقبات والصعوبات التى اعترضته كانت من الخطورة بحيث لو ألقينا نظرة عاجلة بعد ذلك على نتائج الاصلاح الروسى لما استطعنا أن نكتم شعور الإعجاب بهذا الشعب الذى تبوأ مكانه بين الدول العظمى بين غمضة عين وانتباهتها وتاريخ الروسيا فى هذه الناحيـة نموذج طيب للنهضات الاجتماعيـة الناجحة التى ترتفع بالأمم من الحضيض الى أعلى عليين ، ولا يهمنا فى هذا الطريق الذى سلكه الروس فى الاصـلاح لذاته بقدر ما يهمنا أن نعرف أن هناك أمما ارتفعت الى الذروة وكانت من قبل تفتقر الى كل شىء ، ويعوزها كل شىء . وهذا حافز طيب للأمم الصغيرة لتنهض ، وفيـه رد على الذين لا ينظرون الى حالتنا الحاضرة مرة إلا ريثما يرجعون ببصرهم يائسين من الاصلاح داعين للتكاسـل والخذلان . اللهم إنا نسأل لهؤلاء الصمت ، كما نسأل للمتفائلين ذوى العزائم القوية العمل والانتاج .

نظرت الروسيا الى نفسها وهذه حالتها فلم تيأس ولم تتردد لحظة واحدة فى سبيل التقدم نحو الاصلاح . وكانت هناك عقبة كؤود تقف فى سبيل الاصلاح المنشود فضلا عما ذكرنا من عقبات ، فهـذه المشروعات الضخمة التى أعدها المصلحون كان يعوزها المـال — المـال هو العدو اللدود الذى يقف فى وجه كل مشروع فردى أو اجتماعى فيهده من أساسه ويقضى عليه . وقد رأت الروسيا أن الأمم الرأسمالية قد نجحت فى التغلب على هـذه العقبة بأن اقترضت الأموال اللازمة لها من الدول الأخرى أو ألزمت الدول المغلوبة على أمرها

بتعويضات مالية كبيرة . ولم تكن تملك الروسيا فى ذلك الوقت أن تلزم أية دولة بتعويضات مالية ، فضلا عن أنها لم تستطع أن تفترض شيئا من الدول الرأسمالية لرفض هـذه الأخيرة أن تقرضها . فكان عليها إذن أن تجد المـال فى داخل البلاد نفسها ، ولا تلجأ فى الحصول عليه الى الخارج ، وقد وجدته فعـلا ، فقد استولت الحكومة السوفيتية على جميع المصانع والطواحين والأراضى من الملاك وأصحاب الأعمال وسيطرت على جميع رسائل المواصلات والبنوك والتجارة الداخلية والخارجية ، وأصبحت الدولة هى المالكة لكل شىء ، فتوفر لديها من هذا كله ثروة هائلة كانت تضيع فى أيدى الرأسماليين والطبقات الاستغلالية (كطبقة الكولاكس) الذين لم يكونوا يعبأون بأى إصلاح . وقد لجأت الحكومة الى توفير المال من طريق آخر ، فقد ألغت حقوق الملاك فى أراضيهم ، وأصبح هؤلاء لا يملكون حق التصرف فيها . وقد رفعت الحكومة بعملها هـذا عبئا ثقيلا كان يرزح تحته العمال الزراعيون الذين كانوا يرغمون على دفع الأموال الطائلة للملاك . ووفرت بهذا جميع هذه الأموال الى العمال أنفسهم . ومن ثم وجد هؤلاء العمال أنفسهم فى معسكر ما يسمح لهم بالمساهمة فى مشروعات الإصلاح التى عهدتهم عنها الحكومة ، والتى شغفوا بها داخل فى بلادهم . والآن ما هى هذه الإصلاحات ؟

الإصلاح الزراعى

بدأت الحكومة السوفيتية بأن قامت بتوزيع الأراضى توزيعا عادلا . فأعطت الفلاحين الذين لم يكونوا يملكون شيئا فيما مضى نصيبهم فى الأراضى . وقضت بذلك على التفرقة الطبقية التى كانت قائمة بين كبار الملاك والفلاحين . غير أنها سرعان ما اكتشفت خطأها فى هـذا التوزيع ، ووجدت نفسها وجها لوجه أمام مشكلة من أعقد المشاكل . فقد كانت الضياع الواسـعة التى يملكها الملاك وأصحاب الأراضى فيما مضى قادرة على توريد الشىء الكثير من المحصول الزراعى — وقد كان فائضا عن حاجة هؤلاء الملاك — إلى السوق فى المدينة . وكان هـذا الجزء الهام من المحصول الزراعى السنوى مفيـدا جل الفائدة للمدنيين . إذ كانوا يعتمدون عليه أولا وقبل كل شىء فى الاستهلاك .

وكان الجيش يشترى ما يحتاج إليه من خبز ومحاصيل أخرى للاستهلاك من هذا الجزء من المحصول الفائض عن حاجة كبار الملاك . ولكن الحال اختلفت تمام الاختلاف . فقامت الحكومة بتوزيع هذه الضياع الواسعة ، وتلك المساحات الكبيرة على جميع الفلاحين . ولكى تترك لكل شخص الحق فى الملكية فقـد انتهى الحال بهذه الضياع إلى أن أصبحت ضياعا ضيقة ، وضيقة جدا فى بعض الأحيان وكانت النتيجة الطبيعية لهذا أن أصحاب هذه الضياع

الضيقة ما كان فى وسعهم ، لضيق مساحة أنصبتهم من الأرض ، أن يوردوا إلى السوق شيئا من المحصول لكى تستهلكه المدينة. ومن ثم أصبحت الحكومة عاجزة عن تموين المدنيين من ناحية والجيش من ناحية أخرى بما يحتاجون إليه من المحاصيل الزراعية. وخيم شبح المجاعة على المدينة ونظر الرأسماليون وأصحاب الأملاك الذين نكبوا فى أرضهم إلى النظام الجديد نظرة ملؤها السخرية من ناحية واليقين بعودة الحكومة إلى النظام القديم من ناحية أخرى .

لعلاج هذا الخطر الداهم كان أمام الحكومة طريقان : إما العودة إلى النظام القديم فى توزيع الأراضى، نظام الضياع الواسعة ، وفى هذا رجوع بالنظام الشيوعى إلى القهقرى وإجحاف بالطبقة الزراعية أى إجحاف. وواضح أن هذا الطريق لم يكن فى مصلحة الحكومة. أما الطريق الثانى فيرمى إلى إدخال نظام الضياع الواسعة فى النظام الشيوعى وصبغه بهذه الصبغة الجمعية أعنى أن هذه الضياع الواسعة لن يقوم بزراعتها الأفراد كل على حدة بل ستزرع بطريقة جمعية تكفل توريد كميات وافرة من المحاصيل الزراعية إلى المدينة . وبهذا تتفادى الحكومة المجاعة التى كانت تهدد المدنيين ورجال الجيش. فهذه الضياع الواسعة التى ستزرع بطريقة جمعية لها هذه المزية من ناحية ، فضلا عن أن الزراع سيستطيعون فى ظل هذا النظام الجمعى إدخال النظم الآلية فى الزراعة . وهذا ما كان يصبو إليه الزراع والحكومة معا لتوفير كمية أكبر من المحاصيل. فعلى الحكومة إذن أن تقنع الزراع (عن طريق الإقناع وحده وليس عن طريق القوة) أن يقلعوا عن الطريقة الفردية فى الزراعة و يستبدلوا بها الطريقة الجمعية الجديدة .

وقد قال الرفيق ستالين فى اجتماع اللجنة المركزية للمؤتمر الشيوعى فى جلستها الخامسة عشرة فى معرض الكلام عن هذا الخطر الداهم ، قال : " فالطريق الوحيد أمامنا هو أن نحول الضياع الصغيرة المنتشرة الى ضياع متسعة متحدة قائمة على نظام زراعى جمعى . يشد أزره الآلات الزراعية الحديثة وتغذيه أحدث الطرق العلمية فى الزراعة . وليس هناك طريق للخلاص إلا هذا " .

والمهم من هذا كله أن نلاحظ أن الزراعة فى روسيا لم تعد زراعة فحسب . بل زراعة تشد أزرها العدد والآلات. أعنى أنها أصبحت زراعة صناعية. يقول ستالين " إننا نمر الآن بمرحلة خطيرة تتحول فيها بلادنا من قطر زراعى إلى قطر صناعى " .

أقبل الناس على النظام الجديد ، النظام الجمعى فى الزراعة شيئا فشيئا وأخذت الحكومة فى إقناعهم بصلاحيته . ولكن أفراد طبقة " الكولاكس " لم يقروا الحكومة فى خطتها الجديدة. ولم تجد المحاولة فى إقناعهم شيئا. ولما أعيت الحكومة الحيل فى إقناعهم بالإذلاع

عن النظام الفردى ، أصدرت أمرها بمنع تأجير العمال الزراعيين ما داموا قد أصبحوا ملاكا ولم يعودوا عمالا فحسب . ولما كانت طبقة " الكولاكس " تعتمد على العمال الزراعيين فى زراعة أراضيها ، فقد اضطرت بعد صدور القانون بحظر تأجيرهم لأنهم لم يعودوا أجراء ، اضطرت الى تسليم أراضيها . وبهذا حلت الحكومة مشاكل عدة .

١ — فقد تخلصت من أكثر الطبقات استغلالا فى الروسيا ، وهى طبقة الكولاكس . وبذلك قضت على آخر الطبقات تمسكا بالنظام الرأسمالى .

٢ — وقد نجحت الحكومة فى إقناع أكثر الطبقات العمالية عددا وهى طبقة الفلاحين بأن ينتقلوا من نظام الزراعة الفردية التى ليست إلا طريقا من طرق الرأسمالية الى نظام الزراعة الجمعية .

٣ — وقد ثبتت الحكومة بهذا القرار أقدام النظام الجمعى التعاونى فى الزراعة . ولجأت الحكومة بعد ذلك إلى تقسيم الروسية إلى مناطق زراعية ينفذ فيها النظام الجديد سنة بعد أخرى لتضمن له الانتشار (أ) شمال القوقاز ووسط الفولجا وجنوبه . وقد كانت هذه المناطق مستعدة للنظام الجديد لوصول الآلات الزراعية الحديثة اليها . (ب) أوكرانيا ومنطقة الأرض السوداء ، سيبريا ، والأورال . وقد حدد لهذه المناطق أن يتم فيها الزراعة على أساس النظام الجمعى عام سنة ١٩٣٢ . (ج) وحدد للمناطق الأخرى وكانت تشمل منطقة موسكو وجمهوريات وسط آسيا الخ عام سنة ١٩٣٣ . والواقع أن هذا التقسيم قد أفادت منه البلاد فائدة عظيمة وشهدت سنة ١٩٣١ على وجه التحديد بتقدم هائل فى النظام الجمعى ، وبإقبال شديد عليه . فقد أصبح ٨٠٪ من الأراضى حتى هذا العام تزرع بهذا النظام .

البقية فى العدد القادم

يحيى هويدى
المدرس بأسوان الثانوية